

الأنساق الأسطورية المضمرة عند ربيعة جلطي.

تداخل الأسطورة مع الرواية في جلجامش والراقصة

**.The legendary formulas of Rabia Djelti
The legend overlap with the novel in Gilgamesh and the dancer**

حسنا سعادة

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر *

saada.hasna@ensb.dz

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/26

تاريخ الاستلام: 2025/06/26

الملخص بالعربية:

يعد مصطلح الأدب النسوي من المصطلحات الحديثة التي ظهرت في السياق الثقافي المعاصر وقام حوله جدال، واعتراه نوع من اللبس والغموض، حتى اختلطت مشاريعه، واختلفت حوله آراء النقاد والمهتمين بشؤون الأدب.

كثيرا ما يسعى الأديب لبسط رؤيته تجاه العديد من القضايا الفكرية والدينية والثقافية وتبيان رؤيته في شكل خطاب مضمّر، ما يجعل الأنساق المضمرة قضية مهمة لقراءة ما يريد أن يمرره الكاتب، خاصة حين يتعلق الأمر بالمرأة والأدب النسوي المحكومة في المجتمع الجزائري بمجموعة من العناصر على غرار: دونية المرأة و فوقية الرجل في المجتمع الجزائري بين النص الروائي و الواقع الخارجي _ المرأة و سلطة الرقيب _ الأنوثة في مواجهة الذكورة / الجسد أم العقل .

تعتبر ربيعة جلطي من الروائيات الجزائريات اللواتي اهتممن بهذه القضايا في أدبهن، وخاصة منها المرتبطة بالمعتقدات والرموز والأساطير، وكثيرا ما عالجتها في أعمالها الأدبية ومن بينها روايتها جلجامش والراقصة. ففيم تجلت الأنساق الرمزية الأسطورية المضمرة في الرواية؟ وكيف يمكننا قراءتها؟ ماهي أهم الرموز الأسطورية في رواية "جلجامش والراقصة"؟ وهل حافظت الروائية على النصوص الأسطورية المتناص معها أم حورت فيها لتناسب مع فكرة أو نظرة معينة تريد ترسيخها عند القارئ؟ هذا ما سنحاول معالجته والتطرق له من خلال هذه المداخلة.

الكلمات المفتاحية: الأدب النسوي/ الخطاب المضمّر/ الأنساق الثقافية/ الخطاب الأسطوري الرمزي/ الملحمة

الملخص بالأجنبية :

Women 's literature is a new concept occurred in the modern cultural context for which many critics and those interested in litereture disagree about.

The writer tries hard to simplify his point of view towards several cultural, religious and intellectual cases as an implicit speech. This leads to the importance of the implicit patterns in order to understand what the writer wants mainly when it is about woman and women's

* المؤلف المرسل: حسنا سعادة.

literature which is usually judged by some elements such as woman's inferiority and man's superiority in the Algerian society between the novel and real life, woman and censor's authority, feminism vs masculinity, body and brain.

Rabaa Djelti is considered as a famous Algerian novelist who has been interested in such cases like those related to beliefs, symbols and legends. "Gilgamech and the Dancer" is one of those novels. So, what are the implicit symbolic legendary patterns in this novel? How can it be read? What are the legendary symbols in Gilgamech and the Dancer? Has the novelist kept the intertextual legendary texts or did she change it to suit the reader's thoughts? This is what we will try to address in this intervention.

Keywords: women's literature- implicit speech- cultural patterns- legendary symbolic thought- epic
Key words : women's literature- implicit speech- cultural patterns- legendary symbolic thought- epic

. مقدمة:

يعد مصطلح الأدب النسوي من المصطلحات الحديثة التي ظهرت في السياق الثقافي المعاصر وقام حوله جدال، واعتراه نوع من اللبس والغموض، حتى اختلطت مشاريعه، واختلفت حوله آراء النقاد والمهتمين بشؤون الأدب.

كثيرا ما يسعى الأديب لبسط رؤيته تجاه العديد من القضايا الفكرية والدينية والثقافية وتبيان رؤيته في شكل خطاب مضمّر، ما يجعل الأنساق المضمرة قضية مهمة لقراءة ما يريد أن يمرره الكاتب، خاصة حين يتعلق الأمر بالمرأة والأدب النسوي المحكومة في المجتمع الجزائري بمجموعة من العناصر على غرار: دونية المرأة و فوقية الرجل — النص الروائي والواقع الخارجي — المرأة و سلطة الرقيب — الأنوثة في مواجهة الذكورة / الجسد أم العقل .

تعتبر ربيعة جلطي من الروائيات الجزائريات اللواتي اهتمن بهذه القضايا في أدبهن، وخاصة منها المرتبطة بالمعتقدات والرموز والأساطير، وكثيرا ما عالجتها في أعمالها الأدبية ومن بينها روايتها جلجامر ش والراقصة . ففيم تجلت الأنساق الرمزية الأسطورية المضمرة في الرواية؟ وكيف استحضرتها الروائية في عملها؟ كيف يتقاطع الأسطوري مع الرواية ويتداخل معها إلى درجة التماهي فيتغلغل داخل وجدان القارئ مشكلا فهمة الخاص للعمل الأدبي؟ هل يمكن التمييز بين الأسطوري القديم والأحداث الروائية المعاصرة؟ كيف يمكننا قراءة الأنساق الأسطورية المضمرة عند ربيعة جلطي؟ وما الذي يدفعها لانتهاج نسق الخطاب المضمّر في سردها الأدبي؟ ماهي

أهم الرموز الأسطورية في رواية "جلجامش والراقصة"؟ وهل حافظت الروائية على النصوص الأسطورية المتناص معها أم حورت فيها لتناسب مع فكرة أو نظرة معينة تريد ترسيخها عند القارئ؟ هذا ما سنحاول معالجته والتطرق له من خلال هذه الورقة البحثية .

1. نسق العنونة :

اختارت ربيعة جلطي لروايتها عنوان جلجامش والراقصة، المكون من اسمين، إذ يعتبر الاسم "هو أول وسيلة (لافتة) يدخل بها الشخص المجتمع .. وشيئا فشيئا يصبح الاسم هو الشاهد والتاريخ والحاكمي والراوي"¹، أحدهما تاريخي أسطوري: جلجامش المسجل في السجل التاريخي لسلالة الملوك الذين حكموا أوروك قبل 3500 سنة .

يتناص العنوان مع الأسطورة² البابلية الشهيرة جلجامش "أقدم نوع من أدب الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات ... ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين شيء من فنونها وعلومها ومعارفها سوى هذه الملحمة لكفها أن تبوئها مكانة مرموقة بين حضارات العالم القديم"³، لم لا وهي أول ما سردت قصة الطوفان وسعي الإنسان الحثيث منذ القدم لنيل الخلود، "فالأسطورة للإنسان البدائي تعني قصة حقيقية، بل ومقدسة أيضا، لأنها كانت تمثل الحاجات الدينية والحكم الأخلاقية والمتطلبات الاجتماعية"⁴. فتواترها الناس فيما بينهم ما أكسبها شهرة كبيرة على مر العصور، من هنا تنشأ مجموعة من الأنساق المضمرة التي ضمنيتها ربيعة جلطي في روايتها "فالأساطير والفكر الأسطوري قد لا يتصل بالماضي فقط أو بخطاب الآخرين دون سواهم بل لعله أن يكون جزءا لا يتجزأ من كيان البشر يتجلى في ثنايا ما يقدم من نماذج ورؤى سياسية أو علمانية أو حتى أدبية وشعرية"⁵. فتستغني بالتلميح المضمّر عن التصريح المعلن لوجود توافق ضمني بينها وبين القارئ حول الأسطورة البابلية، لانتشارها واطلاع غالبية القراء عليها، إذ أنها رغم كونها ترجع إلى أصول سومرية لكنها وصلتنا في شكلها البابلي، ما يجعلنا ننسبها حيناً للحضارة السومرية وآخر للبابلية حسب السياق.

2. تداخل الفنون الأدبية عند ربيعة جلطي :

سجلت بطولات جلجامش في اثني عشر لوحا طينياً⁶، تعد نصوصاً أدبية تم إبداعها وإنتاجها في أزمان أقدم من عهد تدوينها، ثم تم نقلها بالرواية الشفهية إلى أن دونت في ألواح طينية منذ أكثر من 2000 سنة قبل الميلاد، ما أدى إلى اختلاف آراء الدارسين حول طبيعتها أو نوعها، فأدرجها البعض ضمن الأساطير كون الآلهة شخصيات أساسية فيها. بينما عدها آخرون ملحمة، لتطرقها للكثير من الوقائع التاريخية كقصة الطوفان، وبعض أعمال جلجامش الخالدة مثل بنائه سور المدينة، وهذه التداخلات الأجناسية ليست بالأمر المستغرب

للعلاقات الوشيعة والتقاطعات بين الأساطير والملاحم القديمة، أليست الملحمة هي التاريخ على أعتاب الأسطورة كما قال فيكتور هيجو .

عنونت ربيعة جلطي روايتها بجلجامش والراقصة، ما يحيل مباشرة إلى تناسها المباشر مع نص الألواح، ولكون ملك أوروك كما ذكرنا شخصية تاريخية "حقيقية لها صفتها الواقعية، أثبتتها آثار ووثائق خاصة ببلاد ما بين النهرين، هو الملك الخامس في قائمة ملوك أوروك، الواردة أسماهم في قائمة الملوك السومريين، ظهر بعد الطوفان، امتدت مدة حكمه الطويلة ما يقارب مائة وستة وعشرين عاما⁷ في العصر المسمى في تاريخ العراق القديم "عصر دول المدن" أو "عصر السلالات" المرجح أنه حكم في حدود 2600 أو 2500 ق . م⁸، وليس شخصية أسطورية، بغض النظر عن كونه ابن الإله نسون كما ورد في النصين: الأسطوري الملحمي والروائي، فلن نتحدث عنه وإنما نكتفي بالحضور الأسطوري الفعلي في الرواية، لنرى كيف تمثلت ربيعة جلطي الأساطير البابلية القديمة؟ وكيف ضمنتها في عملها؟.

3. الأنساق الأسطورية المضمرة في جلجامش والراقصة :

تنتهي الألواح السومرية بموت الملك جلجامش، بعد فشل مسعاه في نيل الخلود، لأنه أثر شيوخ أوروك على نفسه، ثم كان مآله هو مصير كل كائن حي : الموت بعد أن سرقت منه العشب السحرية في الطريق، وأدرك الحقيقة المقدرة على الإنسان أي الموت "وأنه لا سبيل له في الحياة الخالدة، بل يكفيه أن الإله إنليل منحه الملوكة ورفع الشأن والبطولة، ويتضمن القسم الثاني من النص موت جلجامش وراثه والحن عليه، وتعداد أفراد أسرته وحاشيته"⁹ . هذه النهاية التي رفضتها ربيعة جلطي أو حورت فيها لتكون بداية لروايتها، إذ تخيلت أن جلجامش أكل فعلا من العشب السحرية ونال الخلود، "... التهمت بسرعة . منذ تلك اللحظة والسبعون تريلونا خلية من خلايا جسدي القوي هذا تتجدد بسرعة الضوء. بسرعة تفوق دوران أحدكم سبع مرات حول الأرض خلال ثانية واحدة . هكذا كما ترون سيظل وجهي جميلا جدا مدى الأبد، وجسدي القوي هذا شابا ومتناسقا وقويا، وعقلي متيقضا نبيا. ولا أخشى الموت" (الرواية ص 21، 22) . فيكون كل ما سبق من رحلة جلجامش إلى موطن جده أوتونبشتم وقصة الطوفان، ناهيك عن بطولاته أثناء حكمه لأوروك وقوة جسده، وجماله الباهر الذي جعل إله الجمال عشتار نفسها تطلب منه الزواج، أصبح كل ذلك نسقا مضمرا، لم يفصل في الرواية لكنه يفهم بقراءة ما بين السطور فيدرك القارئ ما أضمرته الروائية من سياق حدثي ولم تعلنه .

يتركز موضوع الرواية وفكرتها الأساسية انطلاقا من نسق مضمرا، يكمن في رفض جلجامش الأسطورة عرض إله الجمال للزواج منها، اعتدادا بقوته من جهة وخوفا من تقلباتها المزاجية من جهة أخرى، لتتصور الروائية أنه يندم على تصرفه ذاك، فيكرس حياته اللاحقة بعد خلوده للبحث عنها طلبا للصفح . ما يجعل من عشتار الشخصية المحورية الأساسية الثانية في الرواية، وباعتبار الشخصيات "هي أسطح الثبات أو التحول في

القصة، ... الشخصية هي مجموع الخطوط المختلفة والخطوط المميزة والصفات والأفكار¹⁰. ولكونها شخصية أسطورية (حسب تقسيمات فيليب هامون) فعشتار: أنانا عند السومريين¹¹ فتقابل "عشتار" البابلية "أفروديت" اليونانية و"فينوس" الرومانية، و"إيزيس" الفرعونية و"اللات والعزى". أو الزهرة سابقا. العربية، و"كالي" الهندية. من هنا يتداخل الأسطوري مع التاريخي والروائي على صعيد الشخصيات، فتتقاطع شخصية جلجامش التاريخية مع عشتار الأسطورية في رواية ربيعة جلطي الأدبية.

وسمّت في الرواية بصفاتها الواردة في الأسطورة: إلهة فاتنة لعب، لكنها تتميز عن نظيرتها في الألواح بتنقلها في أجساد الجميلات "تنقل عبر الأزمنة في أجساد الجميلات وتعيش عبرهن" (الرواية ص 25) فكانت تلك وسيلتها لضمان بقائها على الأرض، بعد أن تركت جسدها الخالد: "أمانة بين يدي الإله أنو، وهو من يقرر لماذا ومتى أستعيده. فمنذ آلاف السنين وأنا أنتقل في أجمل أجساد الفاتنات من أركان الأرض الأربعة.. أجملهم على الإطلاق. لا فرق بين ألوانهن، ولغائهن، وأديانهن، وعاداتهن، وجغرافياتهن. يحدث أن أختار أجمل جسد ثم أملؤه وأمتلئ به يصير هو الحدث. جميع النساء اللواتي بقيت أسماؤهن تجري على الألسن عبر التاريخ البشري، كنت أنا من تحركهن" (الرواية ص 92، 93). بينما خلد جلجامش الرواية داخل جسده البشري كما صور في الأسطورة بشعره الطويل وجسده القوي وجماله الفاتن:

"حياه شمس السماوي بالحسن وخصه أدد بالبطولة

جعل الآلهة العظام صورة جلجامش تامة كاملة

كان طوله أحد عشر ذراعا وعرض صدره تسعة أشبار

ثلثاه إله وثلثه الآخر بشر

وهيئة جسمه مخيفة كالثور الوحشي

وفتك سلاحه لا يضاهيه ويصده شيء" (الملحمة ص 06)، فكان مضطرا لتغيير أسمائه وهويته.

تنقل الروائية حكاية جلجامش مع عشتار تماما كما ورد في الأسطورة/ الملحمة الشهيرة التي تعود لأكثر من أربعة آلاف سنة، وكيف أعجبت به بعد فوزه على حارس غابة الأرز، وطلبت منه الزواج: "تعال يا جلجامش وكن حبيبي الذي اخترت

امنحني ثمرتك (بذرتك) أتمتع بها

ستكون أنت زوجي وأكون زوجك" (الملحمة ص 42) مقدمة له الكثير من الوعود المغرية، لكنه رفضها جميعاً، بل وشتمها وأهانها (العمود الثالث . اللوح السادس) . ما كررته ربيعة جلطي بحذافيره (الرواية ص 47، 48 وكذا ص 50 و 54) .

يعد تموز¹² الممثل للإله الخصب والنماء، أحد عشاق عشتار الذين أبدلتهم وتخلت عنهم، فذكرها جلجامش به عندما عدد قبيح فعالها رافضاً عرضها للزواج:

"تعالى أقص عليك مآسى عشاقك:

من أجل تموز حبيب (صباك)

قضيت بالبكاء والنواح عليه سنة بعد سنة" (الملحمة ص 44) .

وهو ما نقلته ربيعة جلطي بنصه في روايتها حين سرد يوسف/ جلجامش قصته مع عشتار لآدم نزيل المصححة النفسية: " تعال أقل لك ..أنت لا تعرفها مثلي يا آدم .. عشتار التي تدافع عنها لم تكن رحيمة بعشاقها. كانت تستغلهم يا آدم ثم تهجرهم وترمي بهم في بئر النسيان؛ فبعد أن ارتوت من ذكورة الإله تموز ألقت به بين ذراعي الموت" (الرواية ص 54) . وتموز من الأسماء السريانية المستعملة في المشرق العربي لأحد شهور السنة الميلادية (يوليو أو جويلية عند الغرب) المرتبط بالحصاد . عقدت عشتار اتفاقاً مع حراس العالم السفلي حتى تنجو من البقاء حبيسة فيه، بأن تقدم بديلاً عنها في عالم الموتى، وحتى تعود الأمور إلى نصابها ضحت بتموز لأجل ذلك، وهو ما ورد على لسان ظل انكيديو في الرواية "بل سأخرج منه رفقة سبعة شياطين، وأختارك لتحل محلي، مثلما فعلت عشتار بالإله تموز .." (الرواية ص 110) .

تتطافر العوالم الأسطورية والملحمية جنباً لجنب مع العالم الروائي لجلجامش والراقصة ضمن عدد من الأنساق الثقافية، بعضها معلن كعلاقة تموز وعشتار، بينما ظل الآخر المتمثل في سبب ما حدث لتموز، وكيف سجن عشتار نفسها في عالم الموتى فلم تستطع الخروج إلا بتقديم بديلاً عنها، ولماذا ضحت بزوجها فداء لها، لتمثل على يديها "مأساته الكبرى التي كانت مدعاة لحزن جماعي"¹³ مشكلاً نسقاً سردياً أسطورياً مضمراً في الرواية.

أكل جلجامش في الرواية عشبة الخلود فصار خالداً مثل الآلهة، فهو حين رفض الزواج من إلهة الجمال في الأسطورة/ الملحمة كانت له أسباب مقنعة بناء على معارف سابقة لمغامراتها، وخوفاً من مصير سيء يلحقه، أو خاتمة مفجعة ينتهي إليها لو تزوجها ثم ملت منه كعادتها . لكنه عند ربيعة جلطي لن يضيره تقلب مزاج إلهة الجمال، ولن يؤدي غضبها منه إلى موته، وهو الذي كان يخشى من الموت ويهربه، خاصة بعد أن فجع بفقدان صديقه أنكيديو (اللوحة التاسع . العمود الأول)، ولعل هذا ما دفعه إلى تغيير رأيه ومراجعة قراره بشأن الزواج من

إلهة الجمال، إذ أصبح بعد أكل العشب بشريا خالدا فيستطيع الزواج من إلهة خالدة، وهي معادلة تختلف كثيرا، في حسابات جلجامش، عن نظيرتها: بشري فان يتزوج إلهة خالدة . صار في الرواية ندا ومساويا لها، بينما في الألواح كانت طبيعته البشرية الفانية تجعله أقل منزلة منها، وترفض كرامته وعنفوانه كملك أن يقبل التنازل أو العيش بشعور النقص، فلما تحققت المساواة بين الطرفين راجع قراره . ما يمكن اعتباره نسقا مضمرا آخر اعتمدته ربيعة جلطي، فيغني التلميح عن التصريح بالدوافع التي أدت إلى تغيير البطل لرأيه بشأن عشتار، ما شكل وعاء سرديا لا ينضب نُهلت منه الروائية أحداثها القصصية .

صور جلجامش على امتداد الرواية شديد الندم والأسف على غلطته تلك "آه يا عشتار . كيف تجرأت أن أؤذيك أمامهم جميعا . أن أخط من شخصك وأن أذل وأنوثتك الجبارة . كان طيشا مني وغرورا . أعرف أنه ليس من الرجولة قط أن أرفض عرضك للزواج مني، ودعوتك الحارة أن أكون رفيقك وحبيبك، أمام شعب أوروك كله بتلك الطريقة الوضيعة " (الرواية ص 49) . تسرد الأسطورة أنه إبان احتفالات المدينة بالنصر على خبابا، وبعد أن غير جلجامش ملبسه، واعتنى بنفسه ليشارك شعبه فرحهم، أعجبت به عشتار، وخاطبته طالبة منه الزواج، لكنه رفض ما أثار غضبها فاستشاطت غيضا وعرجت إلى السماء شاكية لأبويها، ثم طلبت الثور السماوي للانتقام منه (الملحمة ص 46).

يصبح نزول الثور السماوي نسقا مضمرا لاحقا أدى إليه ثورة إلهة الجمال لكبريائها وأنوثتها وألوهيتها، إذ لا نفهم عواقب فعلة جلجامش التي جعلته يندم في الرواية ويقرر، بعد أن نال الخلود، البحث عن عشتار للإعتذار منها إلا عند إدراك هذا النسق اللاحق المضمر، الذي يفسر آثار ذلك على مدينة أوروك وملكها .

جرحت كرامتها وأهينت أنوثتها عندما رفضها جلجامش "أنت أنثى وتدركين حقيقة عمق جرح إهانة الأنوثة فيك. أنه أمر صعب على إلهة مثلي أن أسامحه. لا أعرف هل أقدر أن أسامحه وإن كنت سأفعل أم لا " (الرواية ص 96)، فهي هنا مثلها مثل أي أنثى بشرية لا تقبل الإهانة وتتألم لها .

أعجب أحد أثرياء مضرم (ندرومة) بالراقصة عيشات، التي سكنت عشتار جسدها طيلة أحداث الرواية، وتزوجها؛ لكنها لم تتمكن من إنجاب طفل منه، وأجهضت جنينا غريب الشكل " ذي النجمة الثمانية على جسده " إذ كيف لإلهة أن تنجب من إنسان عادي، صحيح أن هذا شائع ومتداول في الأساطير القديمة، وينتج عن التزاوج بين الآلهة والبشر أنصاف آلهة، مثل جلجامش الذي كانت أمه الإلهة البقرة ننسون، لكن تركيبة المولود لن تكون بشرية كليا، إذ لديه "جينات آدمية من قرابته للأب، وأخرى لم تجد التحليلات لها تفسيراً، أخفق العلماء والباحثون في فهم تركيبته. وعلى الرغم من استنادهم على تاريخ طويل من الأبحاث في هذا المجال، فإنهم لم يجدوا تطابقا مع معطيات سابقة. لم يبق أمامهم سوى الشك أن المادة التي بين أيديهم لا وجود لها

بكوكب الأرض، ولعلها قدمت من مجرة أخرى" (الرواية ص 132). ما يفسر البطولات الخارقة لأنصاف الآلهة في الأساطير، لكن هذا لم يعد ممكنا في وقتنا الحالي مع التقدم العلمي، الذي كشف غرابة الجنين الذي أجهضته عيشات، وما ذاك سوى لأنه ورث تلك الجينات من الإلهة عشتار، التي سكنت جسد أمه فملأته بعظمتها فتضاءلت أمامه كل الصفات البشرية لما لكته الأصلية، ما جعل الظنون تتجه إلى أنه آت من مجرة أخرى، ليشكل نسقا ثقافيا لتصور يدافع عنه بعض العلماء والمختصين في الوقت الحالي يربط الآلهة بمجرات أخرى، ولعله كان الركيزة المضمرة التي اتكأت عليها جلطي في تخيلها للأحداث .

يأت الأمر الإلهي من إله السماء والد عشتار بعد سنوات، بأن تعود إلى جسدها الأصلي، كي تستطيع الصعود إلى السماء، فيكون الجسد الإلهي وسيلتها لتجاوز الجاذبية الأرضية والتعرج نحو السماء، كان "ملفوها بعناية في قطعة من الضوء ... لم ير أنو أفضل من الإلهة ننسون كي تدبر الطريقة لإيصاله بين يديها، لم تر هي بدورها أفضل من الإلهة أورورو تساعدها على فحصه من جديد. أورورو ذات القدرات الخارقة فكرته بأصابعها فنفضت عنه غبار آلاف القرون . عاجلا على عيشات أن تخلع عنها جسد البشر وترجع إلى جسدها الأصلي جسد عشتار، وإلا كيف لها أن تستطيع اختراق السماء" (الرواية ص 300، 301) .

لم يرد في الأساطير القديمة أن يسكن الآلهة جسدا بشريا ويتخلون عن جسدهم الأصلي، بل تفتح عنه خيال ربيعة جلطي فتصورت كل هذا، وصاغته محورة في نسق ثقافي ساد عند الشعوب القديمة، انطلاقا من الأساطير التي تعج بقصص الآلهة الذين يتزوجون من البشر وينجبون منهم بعد أن يتنكروا في هيئات مختلفة، لكن النسق الجديد المتخيل من الروائية، حتى يوافق ثقافتها الدينية ولا يتعارض مع بعض الأنساق الدينية والأسطورية المضمرة عند القارئ، أن يختار الإله جسدا بشريا ويسكنه بإرادته، وبموافقة من ذلك الشخص، ويكون هناك اتفاق وحوارات دائمة، وينتج، حين يتزوج وهو حبس الجسد البشري، جنينا غريبا يفضح هوية أمه غير الآدمية، فهذا ما لم يرد في أساطير الأقدمين وإنما شكل نسقا ثقافيا جديدا اخترعه خيال الروائية الخلاق نتج عن تلاقي أجناس مختلفة بعضها قديم: الأسطورة والملحمة، والآخر حديث: الرواية، مستندة على معارفها الأسطورية، فيم تعرفه من اتخاذ الآلهة لأشكال آدمية وزواجهم منهم، وتمثلت ذلك في أحداث جديدة لتواكب العصر الحالي، مضمنة بعض المعارف العلمية الحديثة في عملها، مولدة نسقا ثقافيا يجمع بين المضمرة الأسطوري والمعلن الروائي .

كانت عشتار الإلهة الأهم التي استدعتها ربيعة جلطي من رحم الأسطورة، وإن لم تكن الوحيدة، إذ تطلب البناء الفني للأحداث الاستعانة بآلهة آخرين تمثل " شخصيات تمارس دورها في الفعل الحكائي، واختيارها ماهو إلا رمز لما يحدث في الطبيعة من تفاوت واختلاف في ظواهرها الكونية والبشرية على حد سواء" ¹⁴ يعززون النسق الأسطوري للرواية، ويكشفون ما أضمر من تفاصيله وجزئياته، فوردت الإشارة إلى آلهة آخرين، كان لهم

دور في نمو العقدة الفنية وتأزمها ثم انفراجها، من بينهم بطبيعة الحال والدة جلجامش الإلهة ننسون، التي نزلت إليه "من درج الزهرة بالسماء الثانية، ذات صباح باكر" (الرواية ص 66)، حين كان في أمس الحاجة إليها، لتفسر له حلما رآه .

"يا لمن الأمهات .. لمن باع في الحنان .. سواء كن بشرا أو إلهات . لم تظهر إلا حينما شعرت بأنني في خطر. " ص 67 .

لم تتجاوز الساردة النسق الأسطوري حول الإلهة ننسون، كما وردت في الألواح السومرية القديمة التي دونت بطولات جلجامش، تسارع لنجدة ابنها وتفسر أحلامه. لكنها في الرواية تجاوزت الصورة النمطية المستسلمة التي ظهرت وفقها في الأسطورة حيث لم تكن تكشف أسرار الآلهة لابنها، ولم تكن تساعدته مساعدة فعلية، بل تطلب ذلك من الآلهة الأعلى درجة منها، كما فعلت حين طلبت من الإله شمش مساعدته عندما عزم على الخروج إلى غابة الأرز "أم جلجامش المتمرسه بكل شيء رفعت يديها إلى شمش" بطلب من ابنها "تشفعي لي عند شمش وصلي له من أجلي" (الملحمة ص 36).

نجدها تنصح جلجامش بالذهاب إلى مدينة ولهانة، لأنه ليس فيها حرب وسيلتقي بعشتار هناك، التي اختارت أن تسكن هذه المرة جسد راقصة. لتحذره في الأخير من حرارة الكوكب المتزايدة، ومنحته هدية على شكل طائر عجيب لا يراه سواه اسمه ظل انكيدو الذي يتضح في نهاية الرواية إنه هو نفسه إنكيدو الصديق الحميم الذي ندمت الآلهة على قرارها بقتله فقررت إعادته للحياة . (الرواية ص 67 إلى 70) .

لا يمكن للقارئ فهم عظم هذه الهبة من ننسون، إلا بالوقوف على عمق الصداقة التي ربطت ملك أوروك بأنكيدو، وحين اشتد غضب الآلهة من جلجامش لقتله حارس غابة الأرز والثور السماوي، لم يجدوا وسيلة لعقابه سوى بجرمانه من أعز صديق مقرب من قلبه: أنكيدو، وهو ما يعد نسقا أسطوريا مضمرا لم تفصح عنه الساردة لكنها لمحت إليه عندما أشارت إلى ندم الآلهة على قتله .

استدعت الروائية من رحم الأسطورة كذلك آنو إله السماء، وقد فرض ذلك السياق الفني لشدة تعلق الشخصية الأساسية الثانية عشتار بوالدها، لجأت إليه في النص الأسطوري حين رفضها جلجامش وأهانها، فمنحها، رغم تحفظه على تصرفها، الثور السماوي.

هذا السياق المضمر الذي تجاوزه الساردة جعلت آنو متواطئا مع ابنته، فتركت عنده جسدها لتنتقل في أجساد الفتيات على الأرض، وعندما أوشكت نهاية الكوكب أرسله لها عن طريق ظل انكيدو، لتستطيع من خلاله اختراق السماء كي تنجو من احتراق الكوكب .

يختلف الإله آنو عن غيره من الشخصيات الروائية الأسطورية إنه لم يظهر بجسده شأن عشتار وننسون، ولم نسمعه يخاطب أيا من الشخصيات الأخرى، عكس ما ورد في النص الأسطوري، بل كان حضوره عن طريق شخصيات أخرى: ننسون وظل إنكيدو، يكلف الأخير بإيصال رسائله المباشرة لعشتار، أو يلمح لننسون عن مكان ابنته حتى يسهل لقاءها بجلجامش، ناهيك عن رسائله التحذيرية عن ارتفاع حرارة الكوكب وقرب احتراقه. ما يعني أن إله السماء في الأساطير السومرية القديمة حافظ في الرواية على مكانته كإله له منزلته العليا، يسير أمور الكون والسماء، وله معرفة بما سيقع من أحداث مستقبلية، ولم تشأ الرواية ابتذال هذه الشخصية، لتجعلها ذات حضور فعلي ومباشر في عملها الفني، مستعينة في ذلك بالمعارف الأسطورية للقارئ المفترض وفق نسق سردي مضمّر لا يفهم شيفرته ودلالاته إلا المتعمق في الفكر الأسطوري القديم.

وردت الإشارة في الرواية إلى إلهة الخلق البابلية أورورو، التي تكفلت بالحفاظ على جسد عشتار والتأكد من صلاحيته "ذات القدرات الخارقة فكرته بأصابعها فنفضت عنه غبار آلاف القرون" (الرواية ص 301). وهو أساس وظيفتها الإلهية في الخلق ومنح الحياة، فقد خلقت إنكيدو، في النص السومري القديم، استجابة لشكوى أهالي أوروك:

"استمع الإله آنو إلى شكواهم

ودعوا أورورو العظيمة وقالوا لها:

يا أورورو أنت التي خلقت هذا الرجل

فاخلقلي الآن غريما له

ليكن مضاهيا له في قوة اللب والعزم

وليكونا في صراع مستديم، لتنال أوروك الراحة والسلام.

حالما سمعت أورورو ذلك غسلت يديها

تصورت في لبها صورة لآنو

وغسلت أورورو يديها

وأخذت قبضة من طين ورمتها في البرية

وفي البرية خلقت إنكيدو القوي،

نسل نوروتا " (الملحمة ص 07) .

ظل هذا النسق الأسطوري، عن كيفية خلق إنكيديو وقبله جلجامش، بأكمله مضمرا، في الرواية، اكتفت الساردة بالإشارة إلى القدرات الكامنة في أصابع أورورو التي تخلق بهم البشر دون الاستطراد في كيفيته أو وسيلته، ما لا يهم القارئ معرفته أو الوقوف عليه، إذ يتفق المبدع والمتلقي في النسق الثقافي الديني عن خلق الله سبحانه وتعالى للبشر ما يتعارض مع النص الأسطوري، ومن هنا نشأت حتمية إضمار ما لا يؤمن به الطرفان .

رغم كل ما قيل عن تصور الشخصيات الأسطورية من قبل ربيعة جلطي في جلجامش والراقصة، وتلك الإضافات والتغييرات الطفيفة التي أسبغتها عليهم، إلا أن أبرز ما يميز الرواية من هذا الجانب هو ثورتها الشاملة على الفكر الأسطوري القديم عامة والسومري منه خاصة، إذ أنها زلزلت المعتقدات التي آمن بها شعب ما بين النهرين طيلة حقبة زمنية قديمة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، ونجدها ماثلة في كافة أساطيرهم التي وصلتنا، ألا وهي دور ومهمة الآلهة أنفسهم وعلاقتهم بالبشر.

يقوم جوهر الفكر الأسطوري القديم على تعدد الآلهة واضطلاع كل إله بوظيفة ودور معينين في هذا الكون، إله للخلق وآخر للحرب، وثالث للحكمة وغيره للشمس أو القمر، إله للخصب والنماء وآخر للموت والعالم الآخر ... وهكذا . اعتقد الإنسان البدائي في وجودهم وتسييرهم نظام هذا الكون، فأمن بدورهم للحفاظ على هذا العالم وتأثيرهم على حياته اليومية، واقتنع بأن مصيره سيكون الهلاك إن هم غضبوا عليه، فقصدتهم بالعبادة وبني لهم المعابد المختلفة . تجلّى ذلك بوضوح في قصة الطوفان التي سردها ألواح جلجامش (اللوحة الحادي عشر)، وفيها ذكر صريح أن الآلهة ضجوا وغضبوا من تصرفات البشر فقرروا إحداث طوفان ضخم يغرق الأرض بمن عليها، لولا تدخل الإله إيا الذي أوحى لأوتونبشتيم ببناء السفينة لينجو من الغرق (الملحمة ص 88، 89).

استندت صاحبة الرواية إلى بعض الآراء العلمية الحديثة في تناولها هذا النسق الأسطوري، متخذة دور السارد الذي يشعر "أن السامع أو المتلقي لا يمكن أن يجاريه في تصديق الأوصاف التي يخلعها على شخصياته فيحاول أن يؤكد لنا صحة ما يرويّه أو يحكي، وبأنه ناقل أمين"¹⁵ فلم تثر عليه وترفضه مطلقا، فتخالف جوهر الفكر الأسطوري القديم، لأن النص الأصلي الذي تناصت معه جاعلة روايتها كامتداد له (ألواح جلجامش) يقوم على هذا المعتقد . وبالمقابل لا يمكنها الوقوف في وجه النسق الديني الثقافي المتعارف عليه، والوارد في القرآن الكريم والكتب السماوية، لأن الاعتراف بدور الآلهة كما آمن به الأقدمون مناف للعقيدة الدينية، وخروج صارخ عما يؤمن به غالبية القراء . لكنها من جهة أخرى لم يكن بوسعها أن تنفي وجود الآلهة حسب ذلك التصور القديم .

فضلت الروائية تبني نسق ثقافي مغاير تماما ينادي به بعض الدارسين مؤخرا، فيه دمج للأسطوري والواقعي، مفاده أن الآلهة في المعتقدات القديمة هم فضائيون قدموا من مجرات أخرى ليقدموا معارفهم لبني البشر، ويسهموا في تقدمهم، ثم عادوا إلى مجراتهم البعيدة . فقد خاطبت عشتار مضيفتها بالجسد عيشات قائلة: "تعلمي أنني منذ أقول حضارة ما بين النهرين، اخترت البقاء على هذا الكوكب، ولم أفعل مثلما فعل أغلب الآلهة الذين عادوا إلى مجراتهم البعيدة، من حيث جاءوا بحضارتهم إلى الأرض، بعد أن تزوجوا البشر ونقلوا إليهم معارفهم" (الرواية ص 91) .

اعتمدت ربيعة جلطي على هذا النسق العلمي المضمّر للتوفيق بين الواقع المعاصر المنكر لوجود آلهة متعددة، وبين الماضي السومري البعيد، أين عثرنا على الألواح المتضمنة لأسطورة جلجامش، بألهتها المتعددة التي تناصت معها الرواية. وبناء على هذا النسق الثقافي الجديد تكمن مهمة إله السماء في "تفقد النجوم واحدة واحدة، يخشى عليها من السقوط" (الرواية ص 226) ، ويحذر من ارتفاع درجة حرارة الكوكب "ارتفاعا جنونيا لم يسبق له مثيل في هذه المجرة، في حين عرفته بعض المجرات الأخرى" (الرواية ص 299، 300) . وتنتهي الرواية بأوامر صارمة من آنو وننسون صادرة لجلجامش وعشتار "لترحلوا نحو مجرة أخرى .. أتركوا هذا الكوكب المهجور المسكين يرتاح. اتركوا له الوقت الكافي ليلعق جراحه وليرممه الزمن" ص 333 .

يتميز الآلهة عن البشر حسب النصوص الأسطورية بالخلود، فحين خلقت الإنسان احتفظت لنفسها بالخلود:

"إلى أين تسعى يا جلجامش

إن الحياة التي تبغي لن تجد

حينما خلقت الآلهة العظام البشر

قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة" (الملحمة ص 74) .

يشير هذا النسق الأسطوري المضمّر تساؤل هام: لو كان الآلهة الذين آمن بهم الإنسان البدائي مبدع أسطورة جلجامش، التي انطلقت ربيعة جلطي من فكرتها لصياغة عملها الروائي، لو كانوا خالدين فأين ذهبوا؟ لماذا لا نراهم على الأرض يشاركون شخصياتها البشرية الأحداث؟ لماذا لم يظهروا في السياق السرد للرواية (باستثناء عشتار طبعاً المتنقلة عبر أجساد الجميلات) إلا لمساعدة البطل حين تضيق به النفس والأفكار؟ لعل الكاتبة تخيلت أن هذه الأسئلة المضمرة ستطوف بذهن القارئ، ففضلت أن تقدم له الجواب المقنع بما يتوافق مع نسقه الثقافي، اعتمادا على بعض النظريات العلمية الأخيرة حول الفضائيين، الذين زاروا الأرض في أزمنة مضت

ونشروا علومهم بين البشر، ثم عادوا من حيث أتوا . لكنها، وحتى تحافظ على ذات النسق الأسطوري الذي تناصت معه، جعلتهم آلهة، ولعلها استوحت الفكرة من الفيلم الهوليودي الشهير ستارغايت أو بوابة النجوم.

خاتمة :

ختاماً، استطاعت الروائية تمثل الأساطير في روايتها جلجامش والراقصة، وفق نظرة مغايرة نوعاً ما، ما أخرج لنا نسقاً ثقافياً مميزاً، يشكل مزيجاً أخاذاً بين القديم والحديث، الأسطورة والرواية، الديني والديني، المقدس والميتافيزيقي، في توليفة أقل ما يقال عنها إنها حفظت للأساطير أهميتها ودورها الأساسي القديم كوعاء للتاريخ والدين، وأثبتت تغلغلها في لا وعي الإنسان الحديث، أين تقبع أنساقها المضمرة في أعماق الذاكرة جاهزة للتجلي في أي وقت يستحضرها فيه. تكمن براعة ربيعة جلطي في استنطاقها الأسطورة/ الملحمة القديمة وجعلها نواة أولى لعملها الروائي يتداخل ويتناص معه، فتدفع القارئ المعاصر إلى العودة لكل تلك الأنساق الأسطورية: الصريحة منها والمضمرة، والغرف منها بطريقة شيقة، إذ يستحيل على القارئ فهم الرواية المعاصرة دون الاطلاع على النسق الأسطوري المضمّر داخل النص السومري، وتمثله قراءة وفهما واستيعاباً، ناهيك عن استحضار معارفه الثقافية والدينية، وهو التحدي الذي نجحت فيه الروائية بامتياز: بث مجموعة من الأنساق الأسطورية المضمرة التي يتمثلها القارئ انطلاقاً من اطلاعه المسبق على النصوص الأسطورية القديمة .

الهوامش وقائمة المصادر والمراجع:

- ¹ - محمد العافية . "الخطاب الروائي عند اميل حبيبي" . مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى 1997. ص 143.
- ² . هناك اختلاف حول النوع الذي تندرج ضمنه الألواح السومرية فيعدها الكثيرون ملحمة، لاحتوائها على كل العناصر الملحمية التي حددها أرسطو في فن الشعر، وهي أيضاً أسطورة لما احتوته من تصور عن عالم الآلهة وعلاقتهم بالبشر، ونحن هنا لن ندخل في هذه النقاشات ، وإن كان الأنسب في هذه المداخله عدها أسطورة باعتبارنا نتحدث عن الأنساق الأسطورية المضمرة المتداخلة مع الرواية.
- ³ . طه باقر . مقدمة في أدب العراق القديم . شركة بيت الورق للنشر المحدودة بغداد العراق الطبعة الأولى 2010 ص 125، 126 .
- ⁴ . طلال حرب. أولية النص. نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت لبنان الطبعة الأولى 1999 ص 93
- ⁵ . محمد عجينة . حفريات في الأدب والأساطير . دار المعرفة للنشر تونس الطبعة الأولى 2006. ص 43
- ⁶ . اعتمدنا في هذه الدراسة على ملحمة جلجامش ، الصادرة عن السلسلة الأدبية الأنيس . موفم للنشر 1995 .

⁷ . سوسن البياتي : أساطير العراق القديم البابلية والسومرية. دراسة في تشكيلها السردي. دار الحوار للنشر والتوزيع . سوريا اللاذقية. الطبعة الأولى 2010 . ص 54 .

⁸ . ينظر طه باقر . المرجع السابق ص 128 .

⁹ . طه باقر . المرجع السابق ص 159 .

¹⁰ – Philippe Hamon . "pour un statut sémiologique du personnage" . éditions du seuil 1977 . P 125.

¹¹ . مدلول اسمها في السومرية سيدة السماء أما في البابلية فمعناه عيش الأرض . ينظر سوسن البياتي. المرجع السابق ص 37 .

¹² تموز اله الخصب والنماء اختطفته إلهة العالم الآخر، وسعت عشتار لإعادته، إلى أن توصل الطرفان في النهاية ان يبقى تموز في عالم الموتى نصف السنة، ويعود إلى حبيبته عشتار نصف السنة الآخر (الربيع والصيف) فتخضر الأرض بعودته وتبتهج ويظهر النبات.

¹³ . سوسن البياتي . المرجع نفسه ص 53.

¹⁴ . سوسن البياتي . المرجع نفسه ص 55 .

¹⁵ . سوسن البياتي . المرجع نفسه ص 55 .